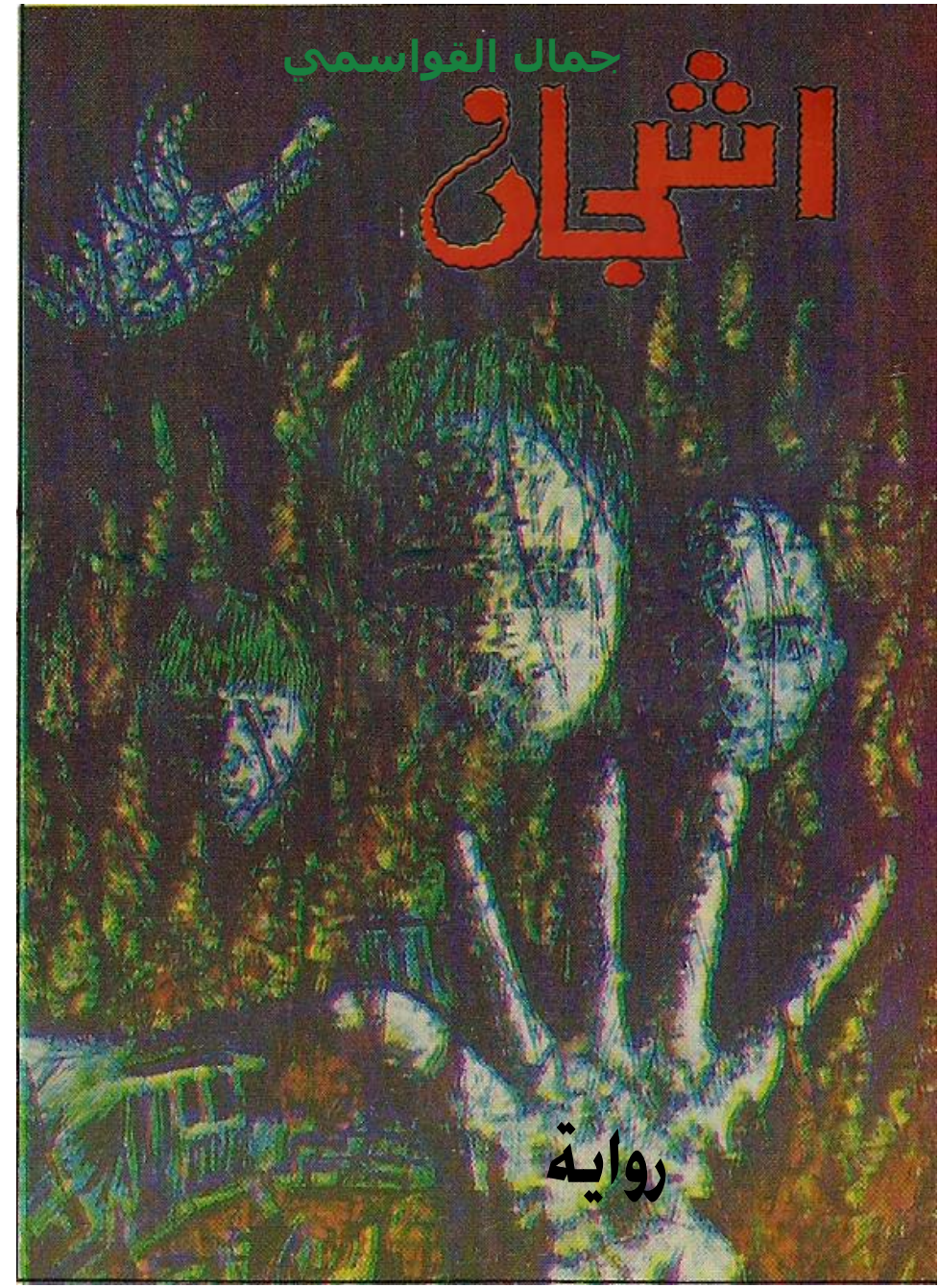

1992

اشتياق

جمال القواسمي

رواية

١٩٩٢

لوحة الغلاف للفنان طالب دويك

جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
كانون اول ١٩٩٢

شكر وتقدير

أتقدَّم بجزيل الشكر إلى الصديقة القاصة مها أبو هلال التي ساعدت بنسخ هذه الرواية بخط يدها وإلى لانا الأيوبي التي طبعتها.

أعرف انني لن أفيكما حقيكما بهذه الكلمات المتواضعة، ولم تتوانا بعطائكما ولم تبخلا به، ولكما باقة من التحيات الحارة والتقدير العميق.

الإهداء

إلى كلِّ عُشَّاق هذا الوطن الجميل الذين عاشوا بلا لذة في الحياة واستشهدوا واقفين ودفنوا بلا شاهد وبلا قراءة الفاتحة وبلا تأبين. فعَمَّدوا الأرضَ بدمائهم واستعادوا أرواحنا بأرواحهم وأرونا السبيل.

تنبيه

في طفولتي حاولتُ دوماً أن أُمسك "خيالي" لكن عبثاً. كان خيال جسدي الصغير ينطّ، ويتبعني أينما ذهبت. وكلما حاولتُ أن ألقي القبض عليه، انسلّ من بين اصابعي، والتصق بالأرض او الجدران دون أن أتمكّن منه.

في يوم ما تآمرت على خيالي : حبستُ نفسي في غرفة مظلمة لا ضوء فيها، لكي يسهل امساكه. فاختفى "خيالي" واختفى جسدي، وبقي ذهني الواعي، فأضاء روحي في العتمة، وجعلني أدرك أنني موجود. وبعد لحظات هاجمني خيال يركب فرساً من نور، خرج من عقلي، وقال لي : « أسمي "الخيال!" تعال!» فأركبني خلفه على فرسه، وهام بي في اقطار ونفوس بشر لم اعرفها من قبل.

لم أستطع يوماً أن أُميّز بين الخياليين : "خيال" جسدي، والخيال الفارس المحلق. وكان كلاهما وجهي عملة واحدة: الواقع والحلم! لذلك كان من الضروري ان أُنبّه القارىء أنّ الاحداث والشخصيات في هذا العمل الأدبي من نسج الخيال...

تـــقـــديـــم

اعزائي القراء:

هذه المذكرات كتبها عاشق، واعطاني إياها بعد ان أُصيب بجراح بالغة وأدرك انه سيستشهد لا محالة. كتب رفيقي الذي اعتدنا ان نسميه "العاشق العظيم"، في هذه الاوراق عن اشجانه، عن الفتاة التي أحبّته وأحبّها، واستشهد لأجلها. كتب احزانه وآلامه وأحلامه، ولم يكتب عن "فرحه"، لأنه استشهد. وقبل أن يلفظ انفاسه الأخيرة، أوصاني ان أواصل نضالي من أجل الفرح الذي سيأتي لا محالة، وأوصاني ان أواصل كتابة ما بدأ به حتى ينتهي، ويطّلع عليه شعبنا ومحبّو الحرية والكرامة الإنسانية في ارجاء الأرض. وأُعاهدك أيّها العاشق العظيم اني سأواصل الكتابة، وأواصل عشقي بعد شهادتك! وسأكتب، سأكتب حتى يقرأ العالم كله عن حبّنا واخلاصنا لرحم الأرض التي أنبتتنا من جسدها، سأكتب عن تضحيات العاشقين وحبهم للحياة، حتى يقرأ "فرح" عن أبيه.

احبائي - هذه القصة جانب من ملحمة أكبر - وها هي قصتنا تبدأ كما صاغها العاشق العظيم نفسه.

الياس
عاشق مطارد

١ـ اشجـــان

أمامها، احسستُ بأني لا شيء. شعرتُ بالضعف والوهن. كنتُ لا شيء، وفي كياني كانت اعاصير الغضب تنمو وتتصاعد. كانت اشجان مكوّمة على السرير، تبكي. آه يا اشجان! يكفيني الحزن الذي في قلبي! كيف لي ان احتمل رؤيتك هكذا؟! جثمتُ على ركبتيّ بجانب السرير. لا أعرف إن كان اتكائي برأسي على جسدها الساخن الملتهب دلالة على الضعف أم لا، لكني كنت بحاجة اليها آنئذ اكثر من اي وقت مضى. شعرتُ بالضعف والتفاهة، ولأول مرة لم تصدّني اشجان.

-« ما بك ؟ احكي لي ! » سألتها. لم تجبني، وراحتْ تجهش باكية.

لم اكن لأحتاج لهذا الوضع المكهرب، فقد كفاني ما مررتُ به في ذلك اليوم. اتكئتُ برأسي على خاصرتها، وانجرفت .. آه يا علي! قبل استشهاده بيوم فقط كنت معه ومع عمران وتوفيق في خشبيته. أمضينا ساعة زمان، نضحك ونثرثر ونتكلم عن العمل والانتفاضة. وعندما كنا نتناول وجبة العشاء، اقتحم الكوخ الخشبي زعران اسرائيليون ونغّصوا علينا جلستنا وانهالوا علينا ضرباً.

هؤلاء الصهاينة العنصريون!.. علي، آه يا علي! أهكذا نحن! قمامة! لكننا لم نذعن للضرب، أخذنا ندافع عن انفسنا. أمسك عليّ احدهم ورماه أرضاً، وخلع عن رأسه القناع. لم اصدق ما رأيت. لم أصدّق انه روني، روني الكلب! كان علي ان أترك العمل منذ زمن طويل. هل

كان من الضروري ان يستشهد علي حرقاً في خشبيته حتى اعلم أنه ليس لي عمل هناك؟

قالت السلطات، عندما اعلنوا عن "مقتلهما"، ان علي وتوفيق اختنقا من الدخان الذي انبعث من مدفأة كانت في "الخشبية"، لكن الحقيقة كُشِفَتْ يوم تركت الشغل: لقد أُحرقت الخشبية حرقاً متعمداً، ولم يمت العاملان الفلسطينيان بسبب اختناقهما، بل وثبت ايضا ان الأبواب غُلِقَتْ من خارج الكوخ، لكي لا يتسنّى للعمال أن يخرجوا منه. أهكذا نحن؟ قمامة لا تحتاج سوى الحرق؟؟ لقد تركتُ العمل المهين، تركته. أليس هذا ما تريدين يا أشجان، وما تحثيني دوماً أن افعله؟

-« تركت العمل يا اشجان، أليس هذا ما تريدين ان أفعله؟ » سألتها، لكنها لم تجبني. دخلت أمي الغرفة، وهي تحمل "جاطاً" فيه حبات بطاطا، بعضها مقشّر، وسكين لامعة الحد. ألقت أمي نظرة علينا. اقتربتْ، وضعت الجاط على الفراش الاسفنجي الذي اجثمُ عليه بركبتي، قرب السرير. مسدّت أمي رأس اشجان برقة ولطف لتطمئنها. ونظرت إليّ أمي، وحدجتني بنظراتها العاتبة.

نعم، كنت افهم نظراتها. كان حديثها الروتيني ما زال حيا في أذني : « إلى متى؟ إنها تبلغ الحادية والعشرين عاما من عمرها وقريبا ستكون في الثانية والعشرين، لقد اصبحت إبنة عمك امرأة لا مثيل لها في كل العالم! إبنة عمك شاريتك ولا يمكن ان تتخلى عنك ... هذا كلامها هي .. المجنونة تحبك! لكن إلى متى ستنتظرك ؟ ماذا عساك تنتظر؟ احكي لي .. تكلّم، قل كلمة واحدة، لتكن على قدر المسؤولية! صرت رجلاً.. متى تعتقد انك ستفتح بيتاً؟ متى؟ متى؟ متى؟ » أحسستُ بضعف شديد، ذبتُ في نظرات امي، وتلاشيت.

وما زالت أمي تمسد شعر اشجان. « اشجان، تكلّمي معي، قولي شيئا! منذ نصف ساعة وأنت حابسة نفسك هنا وتبكين . لماذا تبكين؟ احكي، من زعلك؟ ميسون او سلمى ام مروان؟ ربما مروان فعل شيئا؟ اشجان احكي معي! اتشعرين بمرض؟ أنت مريضة؟ كلّميني، حبيبتي، إني أمك .. مذ كنت صغيرة وأنت تعتبريني أمك، وانا اعتبرك إبنتي .. اشجان.. »

-« لا شيء يا امي، لا شيء. » صدر صوتها الخفيض محترقاً حزيناً ومقطّع الأوصال.

ألقتْ أمي نظرة ناحيتي، ثم تنهّدت بألم، واتّجهت نحو الباب.

-« قاسم، نحتاج الى برميلين من الماء، فأحضرهما من بئر أبي زيدان. لقد رأى مروان الجنود اولاد الحرام يبولون في "حاووز" الماء!» قالت أمي ونظرت إليّ وإلى اشجان.

ما زالت اشجان متكوّمة على نفسها، تبكي، تبكي بالتياع.

-« أشجان! » نادتها أمي لكي تجذب انتباهها، وتخفف ما كانت تشعر به من ألم وإهانة. لم اعرف ما كان يضايقها ويحزنها ويجعلها تبكي، لكن ادركتُ بفطرتي العفوية مذ رأيتها ان الأمر عميق وقوي التأثير. لم أرها من قبل بهذا الانطواء أبداً.

-« اشجان، » نادتها أمي مرة ثانية، فرفعتْ اشجان رأسها، ورأيتُ عينيها العسليتين محترقتين بالدموع المتوهجة، متعبتين، غائرتين. كانت وجنتاها رطبتين صفراوتين وشفتها القرمزية العليا ذابلة من الرعب وترتجف. « إنّي ذاهبة لأحضر المحراث من الياخور، وما دام قاسم جاء فسنحرث الارض سكتين.. اشجان، ما رأيك ان تقشري البطاطا، هه؟ » سألتها أمي. نعم، انا اعرف أمي. أرادت أن تزيل الحزن عن اشجان، أرادت ان تشغل اشجان وقتها. لذا تركت البطاطا والسكينة، وتركت الباب مفتوحاً، وخرجت.

-« اشجان، ما بك؟ » سألتها ورأسي على خاصرتها.

-« ما بي؟ أتسألني ما بي؟ إسمع ضجيج من فوقك وستعرف ما بي! » قالت بصوتها الخفيض الحزين، دون أن تنظر إليّ. ازدادتْ بساطير الجنود ضجيجاً وصخباً جبروتياً. ربّما كان الجنود يلعبون. قاقتْ دجاجة بصوت حاد، ثم دوّى زعيق الديك، كأنهما يستغيثان من ذئب هجم عليهما.

-« أكل هذا ولا تسمع؟ » صرخت اشجان بي بصوت مدوّ، اجتاحني وحطم هدوئي، ودفعتْ رأسي بعيداً عن خاصرتها، وابتعدتْ عني وارتمت على الحافة البعيدة من السرير، وأشاحتْ بوجهها عني.

-« ماذا بوسعي ان أفعل؟ آ، قولي لي! تمركزوا على سطح بيتنا رغماً عني وعن كل البلد! » قلت لها. لم تقل شيئا. سمعتُ اصوات الجنود فوق سطح بيتنا وأزيز البساطير وبعض الكلمات العبرية من آن لآخر، وقاقات الدجاج. ألم أقل هذا الكلام لشباب البلد؟

-« قاسم، عليك أن تسمعنا! نقطة المراقبة والاستحكام التي وضعها الجيش فوق بيتكم يجب أن تُزال! » قال أحدهم وكان ملثما كالبقية.

-« لكني لا استطيع ان امنعهم. »

-« إنّ "النقطة" تكشف تحركات الشبان، وتعرّي انحاء البلد امام

اعين الجنود وآلاتهم المصورة.. ولا تنسى.. »

-« لا تنسى يا قاسم ان السلطات وحتى الجنود المتمركزين فوق سطح بيتكم يوهمون الأهالي بأن واحدا من عائلتكم عميل ومتعاون مع سلطة الاحتلال، ويسهّل عليهم اجراءاتهم القمعية !»

-« أمس، أمس، أنت تعرف.. كان ثمة اضراب، وقال احد الجنود وهو فوق سطحكم انك.. انك تعمل في اسرائيل يا قاسم رغم الاضراب، وانك صديق للجنود وتسهرون معا في الليل .. كل هذا يا قاسم يجعل الناس والأهالي يشكون بك... »

-« لكن ليس بقدرتي ان أمنعهم، وإنا ما احتجّ أحدنا في البيت ورفض وجودهم فحالما يسوقوه إلى "العمارة!" »

-« قاسم، نحن نريد مصلحتكم، لتكن واحدا منا. »

-« إني واحد منكم !! لماذا لا تتفهّموا الوضع !! ما يقع عليكم وعلى البلد نرزح تحته أيضا، وربما كانت مصيبتنا اكبر. حياتنا جحيم يا شباب، جحيم !! الجنود يغسلون اغراضهم المتسخة في "حاووز" الماء، ويغوطون في علب من الكرتون واكياس من النايلون ويلقونها علينا من السطح ناحية باب الدار واسفل الشبابيك. حبال الغسيل واسلاك الكهرباء والتلفزيون دائما مقطوعة بحجة أمن الجنود.

« أمس معص جندي رقبة دجاجة وادّعوا أن جنديا دعس عليها بلا قصد لأنه لم يرها. وذلك عدا قهقهاتهم التي تلعلع لتصل السماء، وضجيج بساطيرهم حينما يرقصون ويتراكضون على السطح. لولا "الراديو" لما عرفنا ما يدور حولنا. أليس هذا كله اذلالاً وعذاباً وألماً!! أليس هذا هو ما نرزح تحته جميعنا؟ آلامنا واحزاننا واحدة يا ابو الشباب! أليس كذلك؟ » قلت لهم. أطرق الشباب الملثمون رؤوسهم. ربت بعضهم على كتفي وظهري.

-« كلنا يا قاسم لنا نفس الاحزان، كلنا في قارب واحد، كلنا! » أتاني صوت أحدهما، أظنّه عماد النجار. ثم ابتعدوا عني وتركوني.

سمعتُ ضحكات مجلجلة متواصلة تنطلق من الجنود فوقنا. بدت الغرفة مظلمة. لاحت الشمس تغرق خلف الجبال لتنام، وهي تبعث من جسدها بهالة دافئة من الالوان البرتقالية والحمراء، ثم تلاشت شيئاً فشيئاً في الغيوم السوداء المتلبدة. ذهبتُ إلى الجانب الآخر من السرير، حيث اشجان. جلستُ على طرف السرير، حاولتُ ان اقترب منها، لم تبتعد اشجان عني ولم تصدّني، امسكتُ يدها.

-« اشجان، اشجان، ما بكِ؟ » سألتها، فأحسستُ بقبضتها الأخرى

تلتفُ حول يدي وتحتوي يدي كلياً وتضغطها بقوة وحزم. عدتُ لأريح رأسي المتعب على خاصرتها الدافئة. مضى بعض الوقت. ثم حررتْ راحتها الاخرى من بين يدي، وعبثتْ بشعر رأسي وخدّي. آه، ألهبتني، ذوّبتني، تمنيتُ في تلك اللحظة ان أنتمي إليها، إليها وحدها، لأشجان، لأشجاني.

-« ما بك مهمومة وحزينة يا أشجان؟ » سألتها ولم تجبني، واكتفتْ بالنحيب المتقطع. « كفى بكاءاً، تركتُ العمل في تل ابيب، لن اشعرك بطعم القلق يا اشجان بعد اليوم. سوف اكون معكم وبينكم إلى الأبد، سأجد عملاً هنا في الخليل، وسنتزوج ... »

اشتدّ ضغط يدها على قبضتي. خدّرتني نعومة راحتها، خدّرتني، وأخذتُ ورأسي متكيء على خاصرتها، أشمّ رائحتها الزكية، الغضبى. اشتهيتُها. أردتُها. لم اشعر من قبل بتلك الرغبة القوية نحوها، ورغم ذلك اعتراني الضعف والحيرة.

-« اشجان،اشجان، مشان الله احكي لي ما بك! لا استطيع ان أطيق صمتك وبكائك! اشجان.. » اقتربت منها وأدرتُها من كتفيها لأرى وجهها. « ما الأمر يا اشجان ؟ دليني عمّا يؤلمك.. قولي لي ما بك.. »

-« خائفة ان أفقدك يا قاسم... » قالت لي بعينين متعبتين.

-« ما عسى ان يأخذني منك؟ انا تركت العـ... »

-« الشابان اللذان ماتا قبل خمس ايام بالحريق في تل ابيب، لم يموتا بسبب الدخان، قالوا في اخبار اليوم انهما ماتا حرقاً.. حرقوا الكوخ بالعمال الذين فيه، وأنت... »

-« قلت لك قبل لحظة انني لن أذهب إلى هناك بعد اليوم... »

-« وخائفة عليك من الذين فوق أيضا.. خائفة... »

-« ممّا أنت خائفة؟ ولماذا عُدْتِ إلى البكاء الآن؟! » صحتُ بها، فألقتْ برأسها على صدري، ولفّت ذراعيها حول رقبتي، وضمّتني بقوة. لم تفعل ذلك من قبل أبداً. امتنعتُ عن ضمّها بساعدي إلى صدري لئلا تجزع مني وتبتعد عني. شعرتُ بدموعها الحارة الملتهبة تخترق جلدي وتزلزلني وتذوّبني. آه، آه يا اشجان كم اخشى انا الآخر ان أفقدك، أنت حياتي، أرضي وعرضي وغدي وحبيبتي! آه كم خشيت ان أضمّها بساعدي لئلا أخيفها.

أتخافني!! دوماً كانت تصدّني، والآن تشبثتْ بي. دوماً كانت تحثني أن أترك العمل في اسرائيل وان نتزوج ونستقر في الخليل. وحين تركته، ضمّتني اشجان إليها. اشتهيتُها. سكنتني هاجساً. نعم،

لم تكن تخافني، بل كانت تحبني وانا أحبها وأحب الخليل حتى وإن لم أجد فيها عملا. صممت ان اجد عملاً في اي مكان، بيت لحم، رام الله، نابلس، القدس او غزة. كنتُ متيقناً من تدبّر أمرنا ومن عيشنا الكريم. لكني لم أطق بكاءها.

-« أتبكين لأنك خائفة علي؟ » سألتها وانا مضطرب.

رفعت اشجان رأسها ونظرت الي. « ضمني إلى صدرك وبيديك يا قاسم، » حثتني بصوت هامس مرتعش، فضممتها الى صدري.

-« ما الأمر يا..؟! »

-« يجب ان نتزوج يا قاسم! » قاطعتني بكلامها الذي غرسته في صدري، ودموعها تسحّ على وجنتيها الدافئتين.« إنّي أحبك يا قاسم، أحبك.. » قالت لي ورأسها على كتفي. وانا كنت احبّها. لكني لم اشعر بأني استحقّ هذه الفتاة الرائعة والحنونة. كنت أحسّ بأني اشتهيها، لا غير. ودوماً كنت محتاراً فيما إذا كان شعوري نحوها حباً أم شهوةً. يا إلهي كم أحبّها، هذه الـ اشجان.

-« ما أمرك اليوم على غير عادتك؟ »

-« يجب ان نتزوج وبسرعة، » قالت وأجهشت باكية وزلزلتني بالتنهيدات المثقلة بالحزن والألم. « حتى لو لم نتزوج اليوم او غداً، فعلينا ان نتزوج في اقرب... »

-« لا اعارض فكرة الزواج، لكن ما الذي ادخل هذا الفكرة في رأسك في هذا الوقت بالذات؟ »

-« خائفة يا قاسم، خائفة.. »

-« ما الذي يخيفك؟ »

-« أخاف ان أضيعك .. أخاف ان أضيعك، وتضيعني، ونضيع كل شيء، حياتنا، شبابنا، أرضنا، مستقبلنا، خائفة يا قاسم، خائفة... » قالت وهي تجهش بالبكاء على صدري.

هزّني كلامها، ووجدتُ نفسي أذكرُ نصائح أيمي بعدم ترك العمل. وما الذي جعلني اقرن اشجان "بأيمي؟" لطالما طلبتْ اشجان مني ان اترك العمل في اسرائيل وخافت ان تفقدني. وقبل ان اترك العمل بعدة ايام، في اليوم الذي استشهد فيه علي وتوفيق، ولم يكن الخبر قد نشر بعد في الصحف، أتت "أيمي" الى المطعم وحثتني ألا أترك العمل. لكن كيف عرفت "أيمي" بمقتل العاملين قبل ان ينشر الخبر في الصحف؟ لا اعرف.

كل ما اعرفه انها فتاة امريكية سخيفة، ومخيفة أيضاً. قالت لي

اشياء كثيرة غير مترابطة. لم أفهم منها شيئاً. خفتُ منها. خفتُ من بقائي هناك في العمل. ويوم كشِفتْ حقيقة الظروف التي استشهد فيها علي وتوفيق حرقاً، لم يعد لي مفر من ترك العمل. آه، آه يا اشجان كنت لا تعرفين حقا كم احبك!!

شعرتُ حقاً بانّي أحبك، خفتُ ان أجعلك تخافين مني، خفتُ من فكرة الا تكوني لي واكون لك. خفت ان اؤلمك وان أؤذيك، كم أنتِ رقيقة وحنونة يا اشجان! ألهذا السبب خفتِ؟! خفتِ ان تفقديني؟

-« لماذا يعمّر الخوف قلبَك؟ ما الذي يجعلك ترتعدين خوفاً هكذا؟ »

-« اليوم قبل ساعة زمان صعد مروان الى السطح لكي يحضر البيض من القفص، فأخذها الجندي منه وكسرها كلها على الارض. سمعتُ صرخة مروان، ارتقيتُ الدرجات ورأيتهم يضربونه، وحينما رأوني صفعوه صفعتين ثم أمره احدهم ان ينزل عنِ السطح وأمسكوني... »

وسكتتْ، وفجأة شعرتُ بشعر رأسي ينتصب خوفاً وخجلاً.

أمسكوها؟! نظرتْ إليّ اشجان بعينين فارغتين من أية اشارة لما تريد ان تقوله، عينين حزينتين، خائفتين، متألمتين. تمنّيتُ للحظة لو حملتُ عنها المعاناة التي تسكن في اعماقها.. ياه كم شعرتُ بالعجز آنذاك!

-« احكي لي.. » قلت لها هامساً، ورأيتُها تنظر إلى الباب. وقف مروان برهة عند العتبة وألقى نظرة علينا، ثم طأطأ رأسه، وعلى وجهه ملامح صارمة على غير عادته، ثم ابتعد عن الباب واختفى.

-« ماذا حدث؟ » سألتها وانا أمسّد شعرها براحتي، فنظرتْ اشجان إلي..

-« لا اقدر ان احتمل المهانة والهوان يا قاسم، لا اقدر! قبل ساعة جندي من الجنود فوق... » همست متلعثمة وهي ترتعش، ضممتها إلى صدري بقوة اكثر لأبثّ فيها القوة والجلد. تنهّدتْ تنهيدات ثقيلة، طويلة، متتابعة، « فوق.. فوق.. الســ.. السطح، اثنان، جنديان .. دفعني جندي... وثبّت.. وثبّت جسدي على "الحاووز" وحاول ـن يرفع دشداشتي.. وكان.. الجنـ.. الجنـ.. دي الثاني قد خلعـ.. بنـ.. طلونه وبال على دشداشتي. لم أعرف ما علي ان افعله! صرختُ صرخةً ولولا اني فتحتُ قفص الدجاج الهائج، وطارتْ الدجاجات على الجنديين لما استطعت ان أهرب الى الأسفل. كنت خائفة كثيرا يا قاسم، خفت من كلامهم وضحكهم، وقال احد الجنود بالعربية انهم سيمسكون بك ويضربونك، وصعدت أمي.. امرأة عمي.. الى السطح وأدخلت الدجاج

الى القفص ولم أقل لها ما جرى... خائفة يا قاسم.. خائفة! » تكلّمت وصوتها يتهدّج ويزلزلني من اعماقي...

ودون أية أرادة مني، وبتلقائية لم اكن أشعر بما تمليه عليّ وعلى افعالي، أخذتْ راحتا يدي تتحسس جسدها المنكمش خوفاً على السرير. هزّني كلامها في اعماق قلبي، وخفتُ عليها ان يصيبها احد الجنود بالأذى، خفتُ أن أفقدها، ان يؤذيها شخص غريب، خفتُ أن يعتريها ولو لثانية احساس بالغربة او الوحدة او العجز. تفقدتْ يدي جسدها. لم تصدّني اشجان بل لمست ظهر يدي الخشنة براحتها اليسرى، كأنها تقول لي، « أنا لك وحدك، أنا على عهدي لك! »

كنت اعتقد دوماً ان الاماكن المحرّمة من جسم الانسان تثير الرغبات والشهوات.. وانها شرّ في حد ذاتها، لكن في تلك اللحظات لم تثر فيّ سوى الخوف على اشجان، ونحن تحت بساطير الجنود الذين فوقنا. غفتْ يدي فوق جسدها ولم اشعر بأية رغبة، لم اشعر بشهوة، انما اجتاحني شعور بالضعف. شيء ما كان يسحقني من الداخل خوفاً على اشجان وحباً لها وحناناً.

وددتُ لو اعانقها، اضمّها إلى صدري. آه! نعم، لقد أدركتُ حقيقة مخضّبة بالمرارة وهي أنّ الاحتلال اغتصب ارواحنا وفتّت احساسنا بالأمان والاطمئنان وتغلغل الى اعماق نفوسنا كما تتغلغل الفيروسات وتستحكم في خلايا المريض. لهذا السبب كانت اشجان تبكي. لقد اغتصبوا روحها ونفسها وعقلها واحساسها بالأمان قبل ان يغتصبوا او يحاولوا ان يغتصبوا شرفها جسدياً.

لا اعرف كيف دفعتني غريزتي كشاب ورجل أن أتفقّد جسدها، ولكن بعد ذلك بلحظات خفتُ ان تكون أنّ اشجان، روحاً وشخصاً ولساناً، قد تفتّتْ واغتُصِبَتْ، خفتُ أن يكون شيءٌ في روحها قد انكسر او تشرذم، شيء لا يمكن شفاءه ابداً، فتتحطم اشجان من الداخل وتذوي. نزعتُ يدي عن جسدها. تحيّرتُ ماذا افعل، ماذا اقول لها؟ أضمّها؟ أربتُ على كتفها او ركبتها؟ او أمسك يدها؟ كنت خائفا عليها، وكانت مكوّمة على السرير وهي تنتحب.

وفجأة، وانا غارق في حيرتي ووهني، رفعتْ اشجان رأسها، والقت علي نظرة احيتني وخلّصتني من ضعفي. كانت عيناها العسليتان عميقتين تشعّان حباً وقوة. كان حبّها اقوى من كل شيء. أخذتْ اشجان تمسد شعر رأسي براحتها اليمنى، فانحسر الشعور الذي يكبّلني بأصفاد العجز شيئا فشيئا حتى تلاشى.. أصابتني سكينة

وطمأنينة لم اشعر بها من قبل. وأشحتُ بوجهي عنها لئلا أريها دموعي، التي اندفعت من مآقيّ بتلقائية وعفوية. وحينئذ رأيتُ السكينة في الجاط الموضوع على الفراش.

-« ضمّني يا قاسم، ضمّني! » قالت لي بصوت خفيض فضممتها.

-« سأصعد فوق السطح. » قلت لها وصممت أن أنتقم لشرفي وشرف اشجان والسكينة تملأ قلبي، لكنها لم تقل شيئاً، وألقت رأسها على كتفي، وأخذتْ على حين غرة تقبّل كتفي ورقبتي وخدي، وبكتْ. وهمهمت ألماً وخوفاً وعانقتني بقوة.

-« أخاف، أخاف ان أضيعك. إني أحبك.. » قالت وهي تبكي وقبّلتْ شفتي. كنت سلبياً في التقبيل. في جوهر السكينة التي استولتْ على عقلي، لم يكن في ذهني شيء سوى الانتقام، الانتقام من الذين فوقنا، من الذين يدعسوننا ببساطيرهم، ويبولون علينا، ويضربوننا ويهتكون قدسية وطننا، ومن ملأوا الوطن بالأحزان ولوّنوه بالآهات.

نهضتُ، ابتعدت عنها، لكنها تشبّثتْ بي. « قاسم، أين؟ »

-« إلى السطح. »

-« لا، لا تذهب.. مشان الله! » قالت متضرّعة ولفّت ذراعيها حول خاصرتي.

-« يجب ان أصعد إليهم. ألم يقولوا انهم سيمسكون بي ويضربوني؟ إن لم اصعد فسيأتون. من الأفضل أن أذهب إليهم لئلا يأتوا هنا ويصيبوا احداً بأذى، أليس كذلك؟ اتركيني، اتركيني يا اشجان! لا تخافي علي... لن اغيب طويلاً، مجرد دقائق... »

لكني كذبتُ عليها. أحسستُ انه سيمرّ وقت طويل قبل ان أراها ثانية. لا اعرف كيف احسستُ بذلك. وحين نزعتُ اصابع اشجان عن ملابسي، انفجرتْ اشجان ببكاء شديد، وطفحتْ على خديها حمرة شديدة، وفاضت دموع ساخنة أذابتني.

-« سوف افقدك.. احسّ أنني سوف أفقدك.. قاسم، لا تتركني... »

-« لن تفقديني.. سأعود حالاً.. لن اتركك.. لا تخافي.. »

اشجان، اشجان، اتركيني، اريد ان نستبدل الاحزان بالافراح، افراح كثيرة. نعم، ستعمّ الافراح غداً. ألن نسمّي بكرنا "فرح" على اسم والدي، عمك يا اشجان؟ هيا، دعيني اذهب.

-« اتركيني يا اشجان، سأصعد فوق! » قلت لها فأمسكتْ اشجان وجهي براحتيها، وشمّتني ودفنتْ رأسها على صدري للحظات، ثم سحبتْ رأسها، وطأطأتْ وجهها وغطته براحتيها، وهي تبكي بحرقة

وألم. تناولتُ السكينة من جاط البطاطا، وحمدتُ الله أن اشجان لم ترني وانا أخذها، وخرجت من الغرفة. رأتني ميسون وسلمت علي. ورأيتُ أمي تأتي من بعيد ومعها سلمى تحملان المحراث. وأخذتُ اصعد، اصعد، اصعد الدرجات المؤدية الى السطح.